عزّ الدين القسّام

من العمل السرّي إلى الجهاد العلني

سماح وليد معتوق الصباغ*

يعدّ الشيخ عز الدين القسّام (1882؟ – 1935) من أبرز القادة الإسلاميين الذين رفعوا لواء الثورة، على قاعدة الوعي الديني الإصلاحي، الممزوج بالإيديولوجية القومية والمبادئ الوطنية، التي انطلق منها معتمدًا على أسلوب جديد في الكفاح، لا يزال صداه يتردد حتى يومنا هذا، ليعبّر عن الرغبة العربية الجامحة، لحلّ القضية الفلسطينية، وإن كان بأسلوب جهادي مسلّح.

آمن القسّام بوجوب نشر روح الثورة، الهادفة إلى تحرير فلسطين من الانتداب البريطاني، والأطماع الصهيونية، التي ازداد نهشها للأراضي الفلسطينية، مع ارتفاع معدلات الهجرة اليهودية، في ظل حماية سياسية عسكرية بريطانية، هادفة إلى زرع كيان يهودي داخل الأرض العربية الفلسطينية التي اختلفت طرق الدفاع عنها، من دبلوماسية معوّلة على قوة المجتمع الدولي، وتحديدًا الدولة البريطانية، إلى كفاح مسلّح وجّه سهامه بادئ الأمر بوجه الإنكليز، رافضًا مبدأ التحاور أو التفاوض معهم، ومعلنًا الثورة ضدّهم، دفاعًا عن الحقوق العربية المغتصبة، التي ناضل من أجلها القسّام واستشهد فداءًا لها[1].

– أولاً: عز الدين القسّام المولد والنشأة

أ. مولده ونسبه

محمد عز الدين القسّام هو ابن المتصوّف عبد القادر القسّام، المشتغل في علوم الشريعة، ووالدته تُدعى حليمة قصاب. وُلد في قرية جبلة الأدهمية[2]، قضاء مدينة اللاذقية السورية. وقد اختلف البعض حول تاريخ ميلاده، حيث تذكر بعض المصادر أنه وُلد في العام 1871[3]، في حين يرجّح آخرون مولده إلى العام 1882[4].

ب. نشأته

ينتمي القسّام إلى أسرة متديّنة، اشتهرت بحبّها للفقه، واهتمامها بأمور الشريعة والدين وسط أجواء من الفقر والعوز، عانى منها

القسّام خلال نشأته، متأثرًا بأبيه المهتّم بنشر العلم والهداية، بخاصة أن القسّام تلقّى علومه في زاوية الإمام الغزالي[5]، وعمل بعدها مدرّسًا لأصول قراءة وحفظ القرآن في قريته، ومن ثم اشتغل مستنطقًا في المحكمة الشرعية[6]. وهكذا، ساهمت البيئة الريفية المثقلة بالمفاهيم والقيم الإسلامية في تشرّب القسّام لأصول الدين، وميله نحو الفقه، وهو الذي عُرف عنه حبّه للتأمل والعزلة وطول التفكير[7].

ت. دراسته

سافر القسّام إلى القاهرة لتلقّي العلوم في العام 1896، حيث تتلمذ في الأزهر على يد الشيخ محمد عبده[8]، وكان له صلات جمعته بالسيد رشيد رضا[9]. دامت مدّة دراسته زهاء عشر سنوات[10]، استطاع خلالها القسّام أن يكوّن ثقافته الدينية التي تجذّر فيها توجّهه الإسلامي الثوري[11]، المتأثّر بواقع العالم الإسلامي – العربي المنتمي إليه، والمتميّز بتبلور الحركة الإصلاحية الدينية الشاملة التي غُرست جذورها داخل التربة المصرية، المنتجة لأهم المفكرين العروبيين الإسلاميين والثوريين، أمثال رفاعة الطهطاوي[12]، وجمال الدين الأفغاني[13].

كان للتجربة التحررية الإصلاحية المصرية دور مهم في إطلاق روح التمرّد، والمقاومة لدى القسّام، الذي تابع خلال وجوده فيها، تطوّر الحركة السياسية بزعامة أحمد عرابي[14]، وصولاً إلى مصطفى كامل[15]، وسط نهج وطني، غلبت عليه أفكار الطهطاوي الذي أقرن الإيمان بحبّ الوطن، بقالب ثوري رفع لواءه الأفغاني، وحمل شعلته الإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا، عبر دعوتهم إلى الإصلاح الديني[16] القائم على التضامن الإسلامي، المميّز لتيّار الجامعة الإسلامية، ومبادئها الداعية إلى اتحاد الفكر والنضال على صعيد الأمة الإسلامية، ووحدة الإسلام والعروبة، التي عبّر عنها عبد الرحمن الكواكبي[17] بمفهوم معاصر دقّ من خلاله ناقوس الثورة، الداعية إلى مقاومة الاستبداد والظلم. وهذا ما أرخى بظلاله على شخصية القسّام التحرّرية وفكره الصلب، الذي جعله من أشدّ القادة المجاهدين تماسكًا وتقشّفًا وورعًا[18]. بعد أن أتمّ القسّام دراسته في الأزهر، عاد إلى قريته جبلة[19] كعالم دين، ومصلح وواعظ، ومرشد يقرن العمل بالدراسة، ويعود دومًا إلى أصول الدين والشريعة والفقه[20].

ث. جهاده

خاض القسّام مهمّتين ثوريّتين، كان لهما أثر كبير في صقل إرادته الجهادية وإغنائها. تتمثّل مهمّته الأولى بمناصرته للعرب المسلمين ضد العدوان الأجنبي، المتمثّل بمحاصرة الأسطول الإيطالي لطرابلس الغرب، العام 1911، حينها، قاد القسّام التظاهرات في بلدته جبلة، هاتفًا مع الجموع ضد العدوان الإيطالي الذي جمع القسّام لمواجهته تبرّعات واسعة، كما ترأس حملة تطوّع وافق عليها العثمانيون، ولبّاها عشرات السوريين المتوجّهين إلى الإسكندرونة بانتظار وصول الباخرة التي ستقلّهم إلى أرض الجهاد على الساحل

الشمالي لإفريقيا. إلاّ أن رحلة القسّام الجهادية الأولى قد باءت بالفشل، بعد أن اعترفت الحكومة العثمانية بضم البلد العربي المسلم إلى إيطاليا، وبعد انتظار دام أربعين يومًا، عاد القسّام ورهطه خائبين إلى جبلة التي استفادت من التبرّعات المجموعة للجهاد، عبر بناء مدرسة لتعليم الأمّيين، أشرف عليها القسّام[21].

قارع القسّام بمهمّته الجهادية الثانية، الفرنسيين القادمين إلى الساحل السوري في خريف العام 1918. حيث عمد إلى بيع بيته– الذي لا يملك سواه– ليشتري بثمنه 24 بندقية، تمكّنه من الانطلاق في معاركه الجهادية ضد الفرنسيين الذين واجهوا العديد من الثورات في سوريا، ومنها ثورة إبراهيم هنانو[22] المقاوم، الرافض لأي تعاون مع الدولة المنتدبة[23]، بالإضافة إلى ثورة الشيخ صالح العلي[24] المعروفة بثورة العلويين التي نشبت بداءة في الجبال المحيطة بقلعة صهيون فوق اللاذقية.

شارك القسّام في انتفاضة العلويين، رافعًا راية الثورة ضد الفرنسيين الذين استطاعوا التغلّب على ثورة الشيخ صالح العلي، أولاً، كما حسمت معركة ميسلون الواقعة في 24 تموز العام 1920 مصير الثورة السورية الكبرى لصالح القوات الفرنسية، ثانيًا، بخاصة بعد استشهاد قائدها يوسف العظمة[25]، ومغادرة الملك فيصل[26] ورجاله سوريا، والحكم على القسّام بالإعدام غيابيًا[27] بسبب تمسّكه بخطه الثوري، ما حدا بالفرنسيين إلى ملاحقته إلى دمشق، التي غادرها نحو فلسطين، حيث عمد إلى تأسيس حركته الجهادية، التي استمرت إلى حين استشهاده في العام 1935. قاوم القسّام عسكريًا الوجود البريطاني وحلفائه الصهاينة الطامعين بنهش الأرض الفلسطينية. وكان لنضاله هذا أثر واضح على حركة المقاومة الفلسطينية، التي تفجّرت بعد وفاته مع بداية الثورة الكبرى العام 1936[28].

- ثانيًا: مواقف القسّام من القضية الفلسطينية

أ. القسّام في حيفا

في نهاية العام 1920، وصل القسّام إلى حيفا[29]، وزاول فيها مهنة التدريس والإرشاد، مما سمح له بالاحتكاك بالمجتمع الفلسطيني ليبثّ فيه أفكاره الثورية التي فتحت له المجال لتكوين خليّته الجهادية[30].

في البداءة، درّس القسّام في مدرسة الإناث الإسلامية، لينتقل بعدئذٍ إلى التدريس في مدرسة البرج الإسلامية للذكور التي أنشأتها الجمعية الإسلامية، المسؤولة عن إدارة الأوقاف الإسلامية في حيفا، تلك المدينة العمّالية الأكثر استقطابًا للعرب، بسبب ما يحويه جوّها من انفتاح اقتصادي اجتماعي نسبيّ ساعد القسّام على نثر بذور نهجه الثوري في أذهان طلاّبه الذين حثّهم على ضرورة توجيه موارد مهنهم المستقبلية، لتعزيز مستوى الاقتصاد الحربي، مشدّدًا على أهمية الإلمام بالحد الأدنى من التدريب العسكري، لمواجهة الصهاينة القابعين وراء الحراب البريطانية[31].

وهكذا، احتلّ القسّام مكانة مرموقة في أوساط المجتمع الحيفاوي، واتجهت الأنظار

إليه، لتقديمه أسلوبًا جديدًا في التعليم، مزج فيه بين المبادئ الأساسية في المنهج الدراسي، وبين التحدّيات الخطيرة البريطانية – الصهيونية، التي يواجهها المسلمون في فلسطين، وهذا ما جعله ينضمّ إلى القادة القلّة داخل المدينة، الذين رفعوا العرائض للمندوب السامي، حول مسألة اختيار مفتي للقدس خلفًا للمفتي محمد كامل الحسيني[32]. حيث تطلّع قادة المدينة إلى تعيين الحاج أمين الحسيني[33] مفتيًا، وهذا ما يطرح التساؤلات حول العلاقة القائمة بين القسّام والحسيني في تلك المرحلة[34].

ب. القسّام إمام جامع الاستقلال

أنشأ جامع الاستقلال في مدينة حيفا بمبادرة من الجمعية الإسلامية، حيث ابتدأ العمل به في شهر أيلول العام 1923[35]، وتمّ افتتاحه وتعيين القسّام إمامًا فيه العام 1925[36].

نشر القسّام أفكاره الثورية[37] من على منبر مسجد الاستقلال بين الفلاّحين والعمّال، وعمد إلى مكافحة الأميّة بين صفوفهم[38]، وتنبيههم إلى الخطر الصهيوني، محذّرًا من التساهل مع الهجرة اليهودية، وداعيًا إلى استقبال المهاجرين اليهود القادمين إلى البلاد وسط حماية بريطانية، على أنهم أعداء، هدفهم تطبيق المشروع الصهيوني، الرامي إلى احتلال فلسطين. ساهمت خُطب القسّام في توعية الناس، وتعبئتهم للجهاد في قالب من الوطنية، وهذا ما زاد من شهرة المسجد، الذي استمر فيه القسّام إمامًا وخطيبًا وداعيةً إلى حين استشهاده[39].

ويلحظ أن ما نبّه إليه القسّام حول الأطماع الصهيونية بالأرض الفلسطينية، جاء في مرحلة لم تكن الصهيونية، قد وصلت خلالها إلى مستوى متقدّم من القوّة عسكريًا، والنفوذ اقتصاديًا وسياسيًا. كما لم تصل في حينها الزعامة الفلسطينية إلى درجة من الوعي، الذي يساعدها على إدراك خطورة المشروع الصهيوني وجدّيته. وما يؤكّد ذلك، الاحتجاجات والعرائض التي وجّهتها الحركة الوطنية الفلسطينية إلى المندوب السامي، حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين، في الوقت الذي احتاج فيه الشارع الفلسطيني إلى التعبئة الصحيحة، والتوعية المكثّفة حول الأخطار، التي تهدّد أمنه القومي ووجوده على أرضه[40].

ت. القسّام في "جمعية الشبّان المسلمين"

تأسست "جمعيّة الشبّان المسلمين" إسوةً بالجمعيّات المنشأة على يد الشبّان المسيحيين في فلسطين التي شهدت فشل سياسة التفاوض في المؤتمرات العربية الفلسطينية، وسط كساد سياسي دفع بالوطنيين إلى الانخراط في تلك الجمعيّات، ومنهم القسّام الذي فاز برئاسة "جمعية الشبّان المسلمين" في انتخاباتها التأسيسية العام 1928. لم يكن للجمعية أي أهداف سياسية معلنة[41]، على الرغم مما قدّمته من دور فعّال داخل الحركة الوطنية الفلسطينية.

واجهت الجمعيّة سياسة التنصير التي اجتاحت فلسطين في أعقاب انعقاد المؤتمر التبشيري في أواخر آذار العام 1928، في

جبل الزيتون بالقدس. حيث عمّت المدينة مظاهرات، واستنكارات واسعة ضد حركة التنصير، أدّت إلى وقوع الصدامات مع البوليس واعتقال المتظاهرين.

دعت مؤتمرات الجمعية الإسلامية إلى محاربة التبشير، وحثّ المسلمين على تدريس أبنائهم في المدارس العربية – الإسلامية، كما والابتعاد من المدارس التبشيرية. من جهة أخرى، عمدت الجمعية إلى وعظ الناس، ونشر التعليم في القرى. في هذه الأثناء وثّق القسّام اتصالاته من خلال الجمعيّة، بقياداتها في باقي المدن الفلسطينية، مما أدّى إلى انضمام عددٍ منهم إلى صفّه ونهجه الثوري. ومن رموز الجمعية الذين انضووا تحت لواء القسّام، ومشوا في خطاه، نذكر: أحمد زعرورة، وعبد الله أبو حمام، وقد انتُخبا أعضاءً في الانتخابات الثانية لجمعية الشبّان المسلمين في يافا[42].

ث. وظيفة المأذون الشرعي

عُيّن القسّام مأذونًا شرعيًّا، عقب اجتيازه امتحان المحكمة الشرعية في حيفا الخاص بالمتقدّمين لوظيفة "مأذون أنكحة"، وذلك بتاريخ 9 تشرين الأول العام 1930. استغلّ القسّام وظيفته كمأذون شرعي، لتقوية الوعي الوطني لدى الفلسطينيين، منطلقًا من فهمه لأصول الشريعة الإسلامية بمرونتها وحركّيتها. فالإسلام في نظر القسّام، ليس اعتكافًا في صومعة، بل هو دستور لتنظيم شؤون الناس، وإرشادهم في حياتهم اليومية. بناءً على ما تقدّم، يمكن القول إن نشاط القسّام في جامع الاستقلال، وجمعية الشبّان المسلمين، وفي وظيفة المأذون الشرعي، كان له دور فعّال في إنجاز مهمّة التهيئة والتحضير للثورة[43].

– ثالثًا: التنظيم السّري لجماعة القسّام

تحوّل القسّام خلال مسيرته النضالية من مدرّس إلى خطيب جامع، فمأذون شرعي، ومرشد وإمام ثائر، يحثّ الناس على الجهاد والمقاومة، باحثًا بينهم عن حواريين له، ورعين ومخلصين لأرضهم ودينهم. شكّلت منطقة شمالي فلسطين نقطة الانطلاق، بظروفها الموضوعيّة المهيّئة التي ساعدت القسّام على تشكيل تنظيمه السرّي، الذي بدأ بنسج خيوطه الثوريّة منذ العام 1925، إلاّ أن التنظيم لم يزاول الأعمال العسكرية كالتدريب على السلاح، للقيام بعمليات جهادية إلاّ بعد العام 1929[44].

لم يتّخذ القسّام لتنظيمه اسمًا معيّنًا، فالتسميّات التي أُطلقت على جماعته كـ"جماعة القسّام"، أو "القساميون"، أو "عصبة القسّام"، جاءت بعد استشهاده، وتحديدًا بعد تكاثر مؤيدي مساره الجهادي في أعقاب تزايد عنفوان ثورة العام 1937[45].

اعتمد أسلوب القسّام في اختياره للأفراد، أولاً، على مراقبة المصلّين من على منبر المسجد، ثانيًا، الدعوة إلى الزيارة بعد الانتهاء من الصلاة، ثالثًا، تكرار الزيارات إلى حين الإقناع التام بوجوب العمل لإنقاذ فلسطين. وكان يتمّ اللقاء ضمن مجموعات سرّية، لا يتعدّ عدد أفرادها الخمسة أشخاص بداءةً، إلاّ أن تلك المجموعات قد

اتّسعت في ما بعد لتضم تسعة أشخاص، يشرف على الحلقة الواحدة نقيب، يتولّى القيادة والتوجيه. كما يقتني كل عضو من الأعضاء سلاحًا يشتريه من ماله الخاص. وشكّلت التبرّعات والاشتراكات الشهرية للأعضاء مصدرًا لتمويل العمل الثوري للعصبة[46].

توخّى القسّام في تأسيس عصبته السريّة، والدقّة في انتقاء الأنصار، فليس كل من أبدى حماسًا للجهاد يكون صالحًا له. لذلك أصرّ القسّام في بحثه، على الصفات والأخلاق الحميدة[47]، التي تؤهّل الفرد لدخول العصبة. كما لا تتاح العضوية لأحد، إلاّ بعد التجربة والمراقبة. وبذلك ابتعد القسّام في تأسيسه لمجموعته، من الأساليب كافة التي انتهجتها بشكل عام، الحركة الوطنية في فلسطين في تلك الفترة.

أ. هيكليّة التنظيم القسّامي

ضمّت عصبة القسّام خمس وحدات منظّمة مختلفة المهام، وهي: المجموعة الأولى: تُعنى بالتدريب العسكري والقيام بالعمليات الجهادية، يشرف عليها ضابط سابق في الجيش العثماني يُدعى جلادت. المجموعة الثانية: مؤلفة من العلماء، وأبرز أعمالها هو الإعداد للثورة والجهاد الديني، ونشر الوعي بين الناس، وشرح أخطار المرحلة الراهنة في البلاد، وكان الشيخ القصّاب[48] موجّهًا ومستشارًا في هذه الوحدة. المجموعة الثالثة: المتعلّقة بشراء الأسلحة والذخائر، بإشراف حسن الباير[49]، ويساعده الشيخ نمر السعدي[50]. المجموعة الرابعة: لها توجّهات سياسية، وتتصل بالسياسيين العرب والفلسطينيين، وأوكلت قيادتها إلى الشيخ محمود سالم المخزومي[51]. المجموعة الخامسة: خاصة بالاستخبارات، ومراقبة خطط الإنكليز واليهود السرّية، يترأسها الشيخ ناجي أبو زيد[52]، وكان يُحبّذ في هذه الوحدة استخدام الأعضاء الذين يعملون في المصالح الحكومية – وبخاصة في دوائر البوليس– إلى جانب العمّال اليهود، وذلك لمعرفة نشاط الأحزاب اليهودية السّري[53].

وهكذا، جمع القسّام في عصبته بين العامل والعالم، ضمن جناحين يتكاملان في المهام والتوجّه الثوري، ويتحدان ضمن بوتقة الجهاد والمقاومة، بمسارها المولود من رحم الحركة العمّالية في حيفا. بخاصة مع تقرّب القسّام من طبقة الفلاحين، وعمّال الميناء وسكة الحديد الذين يحتكّون بشكل يومي بالعمّال اليهود. وهكذا، زاد الاتصال القائم بين اليهود والعرب ضمن الحركة العمّالية الحيفاوية، من نسبة الوعي العربي لمخاطر الوجود الصهيوني، مما جعل العمّال العرب أكثر الطبقات الفلسطينية اندفاعًا، واستعدادًا للتضحية والجهاد في سبيل الحفاظ على فلسطين[54].

ومن كيفية الاختيار إلى نوعية الاختيار، يبدو جليًّا أن القسّام وصحبه لم يبحثوا فقط عن العناصر المؤمنة الصالحة التي لا ينقصها للانضمام إلى خليّة جهادية سوى إيجاد العنوان، بل على العكس، صرف القسّام اهتمامًا بالغًا بالمنحرفين والسارقين والقتلة، هادفًا إلى إصلاحهم، ومؤمنًا بأن جراة السارق، أو المقاتل يمكن

أن تتحوّل إلى شجاعة، توظّف في المسار الجهادي الصحيح. وأكبر مثال على ذلك، هو حسن الباير الذي كُلّف بقيادة مجموعة شراء السلاح والذخائر، بعد أن كان منحرفًا، قبل انضمامه إلى تنظيم القسّام[55].

أما عن العدد الإجمالي للعصبة القسّامية، فهو مختلف فيه، بسبب السرّية التي أحيطت بهذا التنظيم، مما صعّب القدرة على التدقيق، لكن من المرجّح أن يكون التنظيم قد حوى مئتين من المجاهدين، وهو العدد الأكثر اتفاقًا عليه بين المؤرخين.

ب. العمل العسكري

حاول اليهود الإستيلاء على المسجد الأقصى، بدءًا باستملاك جداره الغربي المعروف بحائط البراق، فكانت النتيجة أن اندلعت ثورة مسلّحة، ما لبثت أن امتدت لتشمل الأراضي الفلسطينية كافة، وقد بلغت أوجّها في آب من العام 1929، وأصيب خلالها الكثير من العرب على يد الجيش البريطاني.

شكّلت أحداث البراق مرحلة مفصليّة في تاريخ عصبة القسّام التي انتقلت معها من مرحلة الدعوة إلى الجهاد إلى مرحلة التنفيذ العملي له، ويصف أحد القسّاميين المدعو خليل محمد عيسى هذا التحوّل، فيقول: "كان اليهود يبنون بناياتهم على شكل عسكري، وكثيرًا ما حدثت صدامات بين العرب واليهود، وبينما كان اليهود حاقدين ومحتاطين لأنفسهم، كان العرب غير محتاطين، وقد استغلّ اليهود هذه الميزات كلّها، وكثيرًا ما كنّا نرى العرب يسقطون قتلى وجرحى. وإزاء ذلك طلبنا من الشيخ أن ينتقل من الكلام إلى العمل، وطلبنا أن نتسلّح ونتدرّب، وكان ذلك العام 1928، اشترينا بندقية وأحضرنا مدرّبًا. وكانت تبدأ الجلسة بأن يلقي الشيخ دروسه، ثم تحوّلت دروس الشيخ من دروس دينية إلى تحريض على الجهاد. وكان المدرّب يقوم في آخر الجلسة بتدريب الموجودين على البندقية واحدًا واحدًا"[56].

وهكذا، ساهمت ثورة البراق العام 1929 بأسبابها ونتائجها في تعزيز المسعى الجهادي، وفي الإسراع بعملية التحضير العسكري لإعلان الثورة المسلّحة، في الوقت الذي تولّى فيه القسّام بنفسه عملية تدريب العناصر. وما إن استكملت رحلة التعبئة والتحضير للجهاد، حتى ابتدأت العصبة بتنفيذ عملياتها الفدائية الموجّهة ضد المستوطنات اليهودية، كما وإعداد الكمائن ضد اليهود، وذلك في المرحلة الممتدة من العام 1931 وحتى العام 1932[57].

هدفت عمليّات عصبة القسّام العسكرية في هذه المرحلة إلى زعزعة الأمن داخل المستوطنات اليهودية، وإثارة الذعر بين اليهود، بهدف حثّهم على التراجع عن الهجرة إلى فلسطين، بخاصة مع ارتفاع وتيرة الهجرة اليهودية من 4 آلاف مهاجر العام 1930، إلى 33 ألف مهاجر دخلوا فلسطين بالطرق القانونية العام 1935، بالإضافة إلى تفشّي ظاهرة هجرة اليهود غير الشرعيّة، والتي شهدت زيادة في أعدادها، البالغة 61 ألف مهاجر في العام 1935[58].

ت. عملية مستوطنة نهلال

تُعدّ عمليّة مستوطنة نهلال أهم عمليّة فدائية قام بها القسّاميون في 22 كانون الأول العام 1932، قُتل على أثرها يهودي يُدعى يوسف يعقوبي وابنه داوود جرّاء انفجار قنبلة في الغرفة التي كانا فيها. أثارت هذه العملية اهتمام البريطانيين واليهود على حدّ السواء، وتأتي أهمّيتها لتؤكّد تطوّر القدرة القتالية لعصبة القسّام التي أضحت على مستوى من التقدّم، الذي مكّنها من ضرب نهلال أهم مستوطنة يهودية صهيونية برأي وايزمان[59].

يشار إلى أن القنبلتين اللتين أُلقيتا في نهلال، صنعهما جهاديون قسّاميون في معاقلهم البدائية. ولم ينكشف أمر هذه العملية، إلاّ مصادفةً، وبعد مضيّ ستة أشهر على وقوعها. عندما فتش البوليس البريطاني قرية الصفورية، ليعثر في بيت القسّامي مصطفى علي الأحمد على قنبلة مماثلة لتلك التي أُلقيت في نهلال. فما كان من الشرطة البريطانية إلاّ أن ألقت القبض على الأحمد الذي اعترف تحت تأثير التعذيب بتفاصيل الواقعة، وحيثياتها والمشتركين فيها[60]، ليُعدم بعدها، ويُسجن الفاعلين الآخرين.

ونظرًا لقسوة التحقيق[61] في حادثة مستوطنة نهلال، وتشديد الرقابة، اضطر القسّام إلى التوقف عن القيام بالعمليّات الفدائية حتى العام 1935[62].

ث. الخروج إلى الجهاد العلني

تتلخّص دوافع القسّام في إعلان الجهاد الثوري بما يأتي:

1. إزدياد الهجرة اليهودية، واتساع مساحة الأراضي التي استولى عليها اليهود.
2. حدوث شرخ في أرضية الحركة الوطنية الفلسطينية، بين أنصار كلٍّ من المفتي الحاج أمين الحسيني، وراغب النشاشيبي[63]. وهذا ما زعزع وحدة المسار الوطني في فلسطين قبل ظهور القسّام على خارطة الجهاد الوطني.
3. تشديد الرقابة على القسّام وأنصاره، فتخوّف من الاعتقال الذي سيؤدي إلى عرقلة مساره الجهادي. لذلك قرّر الطواف في القرى وحثّ المواطنين على شراء السلاح، والاستعداد للثورة[64].
4. اكتشاف عملية تهريب[65] ضخمة للأسلحة الحديثة المرسلة إلى اليهود عن طريق ميناء يافا في 16 تشرين الأول العام 1935، مما دفع القسّام إلى الإسراع في إعلان الثورة.

وللرد على حادثة التهريب، تشكّلت لجنة موحّدة تضم قادة الأحزاب الفلسطينية، لمقابلة المندوب السامي ورفع مطالب الحركة الوطنية، التي تتلخّص بما يأتي:

- سحب الأسلحة من المستوطنات اليهودية، ومواصلة التحقيق للقبض على مهربي السلاح وشركائهم.
- اتخاذ التدابير الاحترازية اللازمة، لمنع حدوث عمليات تهريب في المستقبل، كما وإنشاء حاميات عربية لحراسة السواحل الفلسطينية.

شنّت الصحافة اليهودية حملة ضد المطالب العربية، مقترحةً على السلطات

البريطانية وضع حد للتحرّك العربي المستجد، الداعي إلى إعلان الإضراب في فلسطين في 26 تشرين الأول العام 1935. ومع رفض المندوب السامي للمطلب العربي الرامي إلى الإضراب، اتّسعت الهوّة بين الجماهير الغاضبة، وبين الزعامات الفلسطينية المستكينة بوجه الرفض البريطاني.

وجد القسّام في حادثة التهريب، وما تلاها من غضب جماهيري عربي عارم، فرصة لإعلان ثورته ضد الإنكليز[66]. وكخطوة أوليّة، أرسل القسّام إلى مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، رسالة يدعوه فيها إلى تقديم الدعم المادي لثورته المزمع إعلانها. وعلى الرغم من استجابة الحسيني لمطلب القسّام في ما يتعلّق بإرسال مبلغ من المال للثوّار، إلاّ أنه لم يبادر إلى إعلان الثورة والمشي في ركابها[67].

– **رابعًا: معركة يعبد**

تراوح عدد الذين خرجوا مع القسّام في ثورته، بين عشرة وستة عشر مناصر، وصلوا إلى خربة الشيخ زيد[68] في 19 تشرين الثاني العام 1935، بعد رحلة شاقّة محفوفة بالحذر والخوف من البوليس البريطاني الذي اكتشف أمر العصبة القسّامية، وعمد إلى ملاحقتها حتى وصل إلى يعبد في فجر 20 تشرين الثاني، لتبدأ المواجهة العسكرية بين الفريقين بمبادرة من القسّاميين، الذين حوصروا من كل الجهات. اتخذت المعركة بين الطرفين شكل عراك متنقل، واستمرّت حتى الساعة العاشرة صباحًا، كما ساعدت كثافة الأشجار في تحرّك العصبة أثناء القتال من موقع إلى آخر. ومع اقتراب القوات البريطانية من مواقع القسّاميين، أصدر القسّام أمرًا دعا فيه أتباعه إلى عدم الخيانة، حتى لا يكون دم الخائن مباحًا، وعدم إطلاق النار على أفراد الشرطة العرب الذين تقدّموا والشرطة الإنكليزية لمقارعة العصبة.

أ. نتائج المعركة

أبدى القسّام ورفاقه مقاومة باسلة خلال معركة يعبد التي انتهت بتقدّم الإنكليز، واستشهاد القسّام واثنين من رفاقه المجاهدين وهما: يوسف الزيباوي، وعطيفة المصري، وإلقاء القبض على خمسة آخرين، مع مصادرة تسع بنادق، وبندقية صيد، وبندقية سريعة الطلقات بالإضافة إلى كمية من الذخائر. كما قُتل من القوات البريطانية الشرطي "ر. س. موط"، وأصيب فرد آخر يدعى "فرانك. ريد".

شكّلت معركة يعبد مقدّمة لجهاد طويل، وكفاح مسلّح، حوّل مسار النضال الفلسطيني نحو الثورة ضد الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية، وهو ما استشهد من أجله القسّام، الذي تميّز كفاحه باختياره للقسم الشمالي من فلسطين فقط، وبعلاقة جمعته بالحسيني.

ب. أسباب اختيار القسّام للشمال

1. وجود قوى ثوريّة شابّة داعمة له.
2. ملاءمة الشروط الجغرافية لمسار الانتفاضة القسّامية التي طرحت فكرة اللجوء إلى سوريا عن طريق الحدود في حالات الضرورة.

3. العزلة وبُعد المسافة الفاصلة بين التجمعات اليهودية القائمة في شمالي فلسطين.
4. قلّة عدد الشرطة البريطانية المتمركزة في الشمال، والنقص في وسائل الاتصال السريع مع حيفا.
5. ارتفاع نسبة تملّك اليهود للأراضي الشمالية من فلسطين[69].

ت. علاقة القسّام بالمفتي الحسيني

يثير وجود القسّام في فلسطين مسألة علاقته مع الحركة الوطنية بعامة، ومع الحاج أمين الحسيني بخاصة، وذلك لعدة اعتبارات، أهمّها ترأس الحاج أمين الحسيني المجلس الإسلامي الأعلى، ومحاولته التقارب من علماء وقادة البلاد، في حين كان القسّام إمام مسجد الاستقلال، وداعية ثوري، يعمل على استقطاب كافة العناصر الإسلامية النشطة داخل الحركة الوطنية إلى عصبته الجهادية.

لا بد من التأكيد أن العلاقة التي جمعت الحسيني بالقسّام تعود إلى المرحلة الأولى، التي وطأ فيها القسّام الأراضي الفلسطينية، بدليل، العريضة التي وقعّها القسّام مطالبًا بتعيين الحسيني مفتيًا للقدس، في العام 1921. واستمرّت هذه العلاقة، حتى تُوّجت بدعوة القسّام للحسيني إلى المشاركة في العمل العسكري الثوري العام 1935[70].

لعلّ من الصعب الجمع بين شخصيتين متناقضتين في الأسلوب والتوجّه؛ فالقسّام هو الداعية الجهادي الثوري، أما الحسيني فإصلاحي الهوى، تقليدي النزعة، دبلوماسي التوجّه، واستراتيجي الخيار. ففي الوقت الذي دعا القسّام الحسيني إلى الانضمام إلى خطّه الجهادي وإعلان الثورة، ما كان من الحسيني إلاّ أن رفض مطلب الأخير، معوّلاً على الجهود السياسية المبذولة التي رأى فيها طريقًا آمنًا يحفظ حقوق العرب في أرضهم فلسطين[71].

كما لم يثر حادث استشهاد القسّام الحزب العربي[72] أو حتى الحاج أمين الحسيني بالشكل المتوقّع، فيما لو كان القسّام عضوًا في الحزب، أو لو كان المفتي موافقًا على ثورته. وقد امتنع المفتي عن إرسال برقية تعزية، ولم يشارك في الجنازة. بل على العكس، عمد الحزب العربي إلى الاجتماع بالمندوب السامي، بعد الحادثة بأيام قليلة، لتكرار المطالب الوطنية عينها[73]. وعلى الرغم من عدم انتماء القسّام إلى أي من الأحزاب الوطنية الفلسطينية، إلاّ أنه لم يعاديها، وكان صديقًا لعدد من ممثلي الأحزاب، وحاول أن يجذبهم نحو تبنّي خطّه الثوري، بمن فيهم الحاج أمين الحسيني. كما رحّب القسّام بمحاولة حزب الاستقلال[74] تسليط الضوء على مخاطر الانتداب البريطاني على الحركة الوطنية الفلسطينية[75].

– **خامسًا: تأثيرات القسّام على القضية الفلسطينية**

تنطلق الفصائل العربية في حلّها للقضية الفلسطينية عبر اتجاهين متعارضين، يحمل الأول شعار النضال السياسي الصرف، بينما يعبّر الثاني عن أهمية العمل العسكري في حماية الحق العربي بأرض فلسطين. ولعلّ أهم ما أحدثته حركة القسّام عبر

رفعها راية الجهاد، هو مساهمتها في اقناع قادة الحركة الوطنية الفلسطينية بأهمية الحلّ العسكري، خلال مرحلة سيطر عليها اللجوء إلى التسويات السياسية التي لم تستمر طويلاً في أعقاب استشهاد القسّام، المنذر بانفجار الثورة الكبرى في فلسطين، وتبنّي الحسيني لها، واحتضانه للعناصر القسّامية، التي تبيّن لاحقًا أنها أشعلت فتيل المناوشات الأولى، عبر هجومها على قافلة يهودية(76) في الطريق العام بالقرب من عنبتا في قضاء نابلس، وذلك في منتصف ليلة 5 نيسان العام 1936، لتؤكّد بذلك تمسّكها بخط القسّام النضالي الثوري، كحلّ وحيد للقضية الفلسطينية.

وهكذا، أصبح الحديث عن معادلة التحرّر، يقود إلى إدراك أهمية وضرورة العمل الثوري الذي أضاء شعلته الأولى القسّام، جاعلاً من النظرية الجهادية ضرورة ملحّة، وأساسية لحلّ المسألة الفلسطينية، بعيدًا من سيطرة الدبلوماسية السياسية ذات الاعتبارات المرحلية. من جهة ثانية، حرص القسّام على إقامة علاقات طيبة مع قادة الحركة الوطنية وعلى رأسهم الحاج أمين الحسيني بغية إقناعهم بتبني نهجه الثوري الإسلامي(77).

- الخاتمة

ساهمت نشأة القسّام في كنف عائلة مسلمة متديّنة في بعث روح الجهاد الإسلامي المقدّس داخله، وهذا ما جعله يشارك في الحركات الثورية الموجّهة ضد الفرنسيين في سوريا العام 1920، ليقود بعدها نضالاً عسكريًا هادفًا إلى تحرير فلسطين من الانتداب البريطاني وحلفائه الصهاينة.

رفع القسّام في فلسطين لواء الفكر السلفي ذي النزعة الإصلاحية، معتمدًا على المؤسسة الإسلامية التقليدية بأدواتها السلطوية المعبّرة عنها، ليصل إلى المزج بين الطابع القومي، ونظيره الديني في مشروعه المطروح، والذي انتقل عبره القسّام من الدين إلى السياسة، مع تأكيد الدور المهم الذي أدّته الإيديولوجية الدينية في وسم المسار العام للحركة القسّامية التي اتخذت أبعادًا سياسية وطنية وقومية، أضافت عليها منحًى اجتماعيًّا ملحوظًا(78).

وهكذا، عمد القسّام إلى تحرير العقيدة الإسلامية من كافة الطرق الصوفية التي تتغذّى على النزعة الاتكالية والسلبية، للهروب من مواجهة الواقع المتمثّل بالخطر الصهيوني والانتداب البريطاني. وهذا ما دفع القسّام إلى اعتماد الكفاح المسلّح، لقناعته التامّة بعدم جدوى الأساليب السلمية الدبلوماسية، المعتمدة من قبل الحركة الوطنية الفلسطينية، للتفاوض مع السلطات البريطانية التي عدّها القسّام، العدو الأول الهادف إلى إقامة كيان صهيوني غاصب لأرض فلسطين.

خاض القسّام نضالاً إيديولوجيًا هادفًا إلى بناء عقيدة نضالية ثورية تسعى إلى التغيير، وهذا ما جعله يهتم بالعناصر البعيدة من تأثير الحركة الوطنية الفلسطينية في حيفا، دون أن يهمل دور الوجهاء وأصحاب المهن والتجّار والفلاحين، حيث شكّلت العلاقة القائمة بين الإيديولوجية

والتنظيم، أهمية كبيرة بالنسبة إلى الحركة القسّامية، على اعتبار أنها اسْتمدت من الدين الذي يشكّل مصدر التحريض والتعبئة، بحكم تأثيره المباشر على العقل البشري. وهذا ما جعل التنظيم القسّامي، يمتلك قدرة على فرض الإجماع والالتفاف من حوله عبر استخدام الوعي الديني، كوسيلة للمشاركة في النضال الوطني(79).

ترك القسّام أثرًا مهمًا داخل الحياة السياسية الفلسطينية، فبفضله تخلّت بعض القيادات الحزبية عن مبدأ المهادنة، والاستمرار في الاعتماد على الأساليب السياسية مع سلطات الانتداب البريطاني التي استفادت من التربة الحزبية الفلسطينية المنقسمة على ذاتها وسط صراعات عرقية وعائلية، زادت من تفكك المجتمع الفلسطيني وضعفه في مواجهة المخطّطات الصهيونية، الهادفة إلى خلق الكيان اليهودي وسط الأمة العربية(80).

***

الهوامش

*** تعدّ أطروحة دكتوراه في التاريخ – المعهد العالي للدكتوراه – الجامعة اللبنانية**

[1] حسين حجازي: "الحركة القسامية ودلالاتها التاريخية والعقائدية"، **شؤون فلسطينية**، ع. 154 – 155، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، كانون الثاني / شباط 1986، ص 43 – 44.

[2] **جبلة الأدهمية:** لُقّبت مدينة جبلة بـ"الأدهمية"، نسبةً إلى إبراهيم بن الأدهم المتصوّف الزاهد الذي عاش فيها، وبعد وفاته في العام 778، أقيم له في جبلة ضريح وجامع يحمل اسمه.

[3] بيان نويهض الحوت: **الشيخ المجاهد عز الدين القسّام في تاريخ فلسطين**، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت 1987، ص 25.

[4] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، ط.2، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان – الأردن 1986، ص 18.

[5] **أبو حامد محمد الغزّالى الطوسى النيسابورِي الصوفى الشافعي الأشعري:** (1058 – 1111) أحد أعلام عصره ويعدّ من أشهر علماء المسلمين فى القرن الخامس الهجرى، كان فقيهًا وأصوليًا وفيلسوفًا، وكان صوفىّ الطريقة، شافعىّ الفقه إذ لم يكن للشافعية فى آخر عصره مثلَه. وكان على مذهب الأشاعرة فى العقيدة، وقد عُرف كأحد مؤسسى المدرسة الأشعرية فى علم الكلام، وأحد أصولها الثلاثة بعد أبى الحسن الأشعرى. لُقّب الغزالى بألقاب كثيرة فى حياته، أشهرها لقب "**حجّة الإسلام**"، وله أيضًا ألقاب مثل: زين الدين، ومحجّة الدين، والعالم الأوحد، ومفتى الأمّة، وبركة الأنام، وامام أئمة الدين، وشرف الأئمة. كان له أثرٌ كبيرٌ وبصمةٌ واضحةٌ فى عدّة علوم مثل الفلسفة، والفقه الشافعي، وعلم الكلام، والتصوف والمنطق.

[6] علي حسين خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، ط.1، دار ابن رشد للنشر والتوزيع، عمان – الأردن 1984، ص 11.

[7] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 20.

[8] **محمد عبده:** (1849 – 1905) عالم دين وفقيه ومجدد إسلامى مصرى، يُعدّ أحد رموز التجديد فى الفقه الإسلامى، ومن دعاة النهضة والإصلاح فى العالم العربى والإسلامى، ساهم بعد التقائه بأستاذه جمال الدين الأفغانى فى إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، تهدف إلى القضاء على الجمود الفكرى والحضاري، وإعادة إحياء الأمة الإسلامية لمواكبة متطلبات العصر.

[9] **رشيد رضا:** (1865 – 1935) محمد رشيد رضا، حسيني النسب، أحد رجال الإصلاح الإسلامي، عالم في الأدب والحديث والتاريخ والتفسير، تتلمذ على يد محمد عبده، أشهر آثاره هي مجلة "المنار" التي أصدر منها 34 مجلّدًا.

[10] هناك اختلاف في تحديد عدد الأعوام التي أمضاها القسّام خلال دراسته في الأزهر، ذلك أن هناك بعض المصادر التي ترى أن مدة دراسته لم تتعدَّ الثماني سنوات، لأنه نال شهادة الأهلية والتي يتطلّب إنجازها هذه المدة الزمنية فقط. لمزيد من التفاصيل راجع: علي حسين خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 11 – 12.

[11] خير الدين الزركلي: **الأعلام**، ط. 3، الجزء السابع، د. ن.، بيروت 1969، ص 149.

[12] **رفاعة رافع الطهطاوي:** (1801– 1873) أحد قادة النهضة العلمية فى مصر والعالم العربى خلال القرن التاسع عشر. لقب برائد التنوير فى العصر الحديث، لما أحدثه من أثر فى تطور التاريخ الثقافى المصرى والعربى الحديث. اختير إمامًا مشرفًا ومرافقًا للبعثة العلمية الأولى التى أرسلها محمد على باشا إلى فرنسا بعد أن رشحه الشيخ حسن العطار لهذه المهمة وزكاه عند السلطان.

[13] **جمال الدين الأفغانى:** (1838 – 1897) محمد جمال الدين بن السيد صفتر الحسيني الأفغاني الأسد آبادي، أحد

الأعلام البارزين فى النهضة المصرية ومن أعلام الفكر الإسلامي بالنسبة للتجديد.

[14] **أحمد عرابى:** (1841 – 1911) قائد عسكرى وزعيم مصرى، قاد الثورة العرابية ضد الخديوى توفيق ووصل إلى منصب ناظر الجهادية (وزارة الدفاع حاليًا)، وكان أميرالاي (عميد حاليًا).

[15] **مصطفى كامل:** (1874 – 1908) زعيم سياسى وكاتب مصرى. أسس الحزب الوطنى وجريدة اللواء، نادى بإنشاء الجامعة الإسلامية. يُعدّ من أكبر المناهضين للاستعمار، كما عُرف بدوره الكبير فى مجالات النهضة مثل نشر التعليم وانشاء الجامعة الوطنية. نادى حزبه برابطة أوثق بالدولة العثمانية.

[16] أهم معالم النهضة الإصلاحية الدينية التي عايشها القسّام هي: أولًا: العودة بالإسلام إلى أصوله، وإسقاط البدع والخرافات، ونبذ الطائفية. ثانيًا: النظرة إلى تاريخ الإسلام نظرة سلفية صالحة، تمتد إلى بداية القرن الهجري الأول، وتستلهم سيرة الرسول الكريم والصحابة الأوائل. ثالثًا: الثورة على الاستبداد والاستعمار الأجنبي، واجب جهادي. رابعًا: الإسلام والقومية موضوعان لا تناقض بينهما. وما بين الإسلام والعروبة ترابط لا يمكن انفصامه.

[17] **عبد الرحمن الكواكبى:** (1855 – 1902) من روّاد النهضة العربية، ومفكريها فى القرن التاسع عشر، وأحد مؤسسى الفكر القومى العربى، اشتهر بكتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، الذى يعدّ من أهم الكتب العربية في القرن التاسع عشر التي تناقش ظاهرة الاستبداد السياسي.

[18] بيان نويهض الحوت: **الشيخ المجاهد عز الدين القسّام في تاريخ فلسطين**، م. س.، ص 26 – 27.

[19] يختلف الباحثون في تاريخ عودة القسّام إلى بلدته جبلة، حيث يذكر البعض أنه عاد في العام 1903، أمّا آخرون فيعتبرون أن عودته كانت في العام 1906، ولعلّ المرجّح أن تكون عودته قد حصلت في العام 1904 على اعتبار أن مدة الأهلية هي ثماني سنوات.

[20] علي حسين خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 11.

[21] زهير مارديني: **ألف يوم مع الحاج أمين**، دار العرفان، بيروت 1977، ص 82.

[22] **إبراهيم هنانو:** (1869 – 1935) زعيم سوري. قاوم الانتداب الفرنسي. وكان أحد قادة الثورة السورية الكبرى.

[23] خير الدين الزركلي: **الأعلام**، ط.3، ج.1، د. ن.، بيروت 1969، ص 35.

[24] **صالح العلي:** (1883 – 1950) قائد الثورة السورية ضد الفرنسيين في جبال اللاذقية.

[25] **يوسف العظمة:** (1884– 1920) قائد عسكري سوري استشهد في مواجهة الجيش الفرنسي في معركة ميسلون في 24 تموز العام 1920. وزير للحربية في الحكومة العربية في سوريا بقيادة الملك فيصل الأول.

[26] **فيصل بن حسين الهاشمي:** الملك فيصل بن حسين بن علي الهاشمي (1883 – 1933) ثالث أبناء شريف مكة حسين بن علي الهاشمي. وأول ملوك المملكة العراقية (1921 – 1933) وملك سوريا (آذار 1920 حتى تموز 1920).

[27] لمزيد من التفاصيل، حول ثورة إبراهيم هنانو، وثورة الشيخ صالح العلي، ومعركة ميسلون، راجع: فيليب خوري: **سوريا والانتداب الفرنسي – سياسة القومية العربية 1920 – 1945–**، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.1، بيروت 1997، ص 130 – 144.

[28] علي حسين خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 28–29.

[29] تذكر بعض المصادر تواريخ مختلفة حول قدوم القسّام إلى حيفا، فالبعض يرى أن القسّام قد وطأ أرض حيفا في العام 1922، والبعض الآخر يشير إلى العام 1921 على أنه عام دخول القسّام إلى حيفا. ولعلّ التاريخ الأقرب إلى الصحّة هو قبل أواخر العام 1920، بدليل ما اكتُشف من عريضة موقّعة من وجهاء المسلمين في حيفا ومرفوعة إلى المندوب السامي، تطالبه فيها بتعيين الحاج أمين الحسيني مفتيًا على القدس، ويظهر على الوثيقة المؤرّخة في 5 نيسان العام 1921، توقيع المدرّس عز الدين القسّام . أنظر: عبد الوهاب الكيالي: **تاريخ فلسطين الحديث**، ط.1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1970، ص 292. وراجع أيضًا: عادل حسن غنيم: **الحركة الوطنية الفلسطينية من 1917 إلى 1936**، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1974، ص 294.

[30] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 37.

[31] محمد محمد حسن شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، ط.1، دار القلم، دمشق 2000، ص 137.

[32] **محمد كامل طاهر الحسينى:** (1867 – 1921) هو المفتى العام للقدس السابق، وُلد بالقدس تولى منصب الإفتاء بعد وفاة أبيه طاهر الحسينى – عُرف بمواقفه المعتدلة والمناهضة للحركة الصهيونية، وقد شارك الحسينى فى وضع حجر أساس الجامعة العبرية فى القدس بمشاركة اللورد بلفور وحاييم وايزمان. بعد احتلال بريطانيا لفلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، عُين الحسينى رئيسًا لمحكمة الإستئناف الشرعية، ورئيسًا للجنة الوقف العليا فى فلسطين، على الرغم من تعارض الجمع بين منصبى الإفتاء والقضاء. وبذلك أصبح الحسيني مسؤولًا عن إدارة الأوقاف في جميع أنحاء فلسطين.

[33] **أمين الحسينى:** (1895 – 1974) المفتى العام للقدس، ورئيس المجلس الإسلامى الأعلى، ورئيس اللجنة العربية العليا. أحد أبرز الشخصيات الفلسطينية فى القرن العشرين. وُلد فى مدينة القدس وتلقى تعليمه الأساسى فيها، وانتقل بعدها لمصر ليدرس في دار الدعوة والإرشاد، أدى

فريضة الحج فى السادسة عشر من عمره. التحق بعدها بالكلية الحربية بإسطنبول ليلتحق بعدها بالجيش العثماني، وانضم بعدها إلى صفوف الثورة العربية الكبرى.

[34] علي حسين خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 46.

[35] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 40

[36] محمد محمد حسن شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، م. س.، ص 141.

[37] اتّضحت مواقف القسّام الثورية من خلال خطبه التي دعا فيها إلى الجهاد ضد الخطر الصهيوني وضد البريطانيين وحلفائهم.

[38] عبد الوهاب الكيالي: **تاريخ فلسطين الحديث**، م. س.، ص 293.

[39] محمد محمد حسن شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، م. س.، ص 147 – 148.

[40] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 44.

[41] أقرّ المؤتمر التأسيسي لجمعية الشبّان المسليم والذي عُرف بمؤتمر الأندية الإسلامية في يافا، قانونًا للشبّان المسلمين، جاء في مادته الثانية: "لا تشتغل هذه الجمعية في الشؤون السياسية"، وأقرّت مادته الثالثة: "لا تدخل هذه الجمعية في غمار النزعات الحزبية ولا يسمح لأي عضو من أعضائها أن ينزع بها إلى ذلك". من الواضح أن هذه المواد وُضعت للتحايل على القوانين الجائرة التي حرمت الفلسطينيين من حقّهم في إقامة مؤسسات سياسية. إلاّ أن القيّمين على الجمعيّات الإسلامية – المسيحية التي أُنشئت بعيد الوجود البريطاني كانوا في معظمهم رجال الحركة العربية سابقًا وقادة الحركة الوطنية لاحقًا في ثلاثينات القرن العشرين. راجع: بيان نويهض الحوت: **الشيخ المجاهد عز الدين القسّام في تاريخ فلسطين**، م. س.، ص 42.

[42] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 50 – 51.

[43] محمد محمد حسن شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، م. س.، ص 157.

[44] عجاج نويهض: **رجال من فلسطين من بداية القرن حتى عام 1948**، ط.1، منشورات فلسطين المحتلة، بيروت 1981، ص 109.

[45] عزة دروزة: **حول الحركة العربية الحديثة**، الجزء الثالث، المكتبة العصرية، صيدا 1950، ص 116.

[46] صبحي ياسين: **الثورة العربية الكبرى في فلسطين**، دار الكتاب العربي، بيروت 1967، ص 31.

[47] ومن هذه الصفات، الاستعداد للطاعة والرغبة في التضحية. بالإضافة إلى شروط مالية تتعلّق بالاشتراكات والتبرّعات التي تقدّم للعصبة.

[48] **عبد القادر القصّاب:** (1847 – 1941) أحد أعلام الأمة الإسلامية. ومن تلامذة الأزهر.

[49] **حسن الباير:** (1895 – 1984) وُلد في جنين، وانتقل إلى حيفا، حيث اجتمع بالقسّام وشاركه جولاته. عُرف بدوره في شراء الأسلحة التي تزّودت بها جماعة القسّام. وكان من الدعاة النشيطين، خرج إلى الجهاد وأُسر في معركة يعبد التي استشهد فيها القسّام، وحكمت عليه سلطات الانتداب بالسجن لمدة 14 عامًا. ومع وقوع النكبة انتقل إلى دمشق وأقام فيها إلى حين وفاته.

[50] **نمر السعدى:** (1910 – 1948) أحد أبطال معركة يعبد ومن أبرز تلامذة الشيخ عز الدين القسام. ولد الشيخ نمر السعدى فى قرية السعدية قرب مدينة حيفا بفلسطين. ويتصل نسبه بالشيخ سعد الدين الجباوى الذى يرجع نسب أبيه للإمام الحسن بن على بن أبى طالب ونسب أمه للإمام على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب. أصيب فى معركة يعبد ونُقل إلى المستشفى لمدة عام على إثر إصابته، ثم أودع فى السجن وحكم عليه بالأعدام شنقًا وخفف الحكم بعد ذلك لخمس سنوات نظرًا لظروفه الصحية نتيجة بقاء عيار نارى داخل جسده. بعد خروجه انتقل للعيش فى مدينة حيفا واضطر لمغادرتها أثناء النكبة العام 1948، وتوفى فى العام نفسه بسبب الطلق النارى الذى استقر فى جسده ودفن فى حديقة منزله في مسقط رأسه قرية السعدية بسبب ظروف الحرب.

[51] **محمود سالم المخزومي:** من سكان بلدة زرعين. أصله من مدينة الرملة. عمل حارسًا في محطة القطار بحيفا، انضم إلى عصبة القسّام الذي أرسله في العام 1935 إلى الحاج أمين الحسيني ليعلمه عن عزمه بإشعال فتيل الثورة لمواجهة البريطانيين والصهاينة. وهكذا نقل المخزومي إلى الحسيني رسالة القسّام وهي: "الأمور لا تطاق، واليهود يتسلّحون، وقد أصبح الجهاد فرض، وإعلانه فرض، وأنا سأقوم بإعلان الجهاد، وآت عليك كرئيس للمجلس الإسلامي الأعلى وحسب إمكانياتك وميزانية الأوقاف أن تمدّنا بثمن الأسلحة". لمزيد من التفاصيل حول رسالة القسّام إلى الحسيني، راجع: سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 66 – 67. بقي سالم يقاوم الإنكليز والصهاينة حتى النكبة العام 1948، حيث انتقل إلى العيش في سوريا وتوفي فيها العام 1966.

[52] **ناجي أبو زيد:** وُلد في حيفا، وأقام في قرية سولم، وانضم إلى عصبة القسّام، مترأسًا وحدة المراقبة والاستخبارات، شارك في معركة يعبد ونجا منها ليستمر في مقاومته للبريطانيين مع انضمامه إلى رفيق القسّام بعد استشهاده، الشيخ فرحان السعدي.

[53] عبد الله الطنطاوي: **الوادي الأحمر– صفحات خالدة من سيرة الإمام عز الدين القسّام**، دار القلم، ط.1، دمشق 2004، ص 125 – 128.

[54] حسني صالح الخفش: **مذكرات حول تاريخ الحركة العمّالية العربية الفلسطينية**، منظّمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، بيروت 1973، ص 12 – 13.

[55] عبد الله الطنطاوي: **الوادي الأحمر– صفحات خالدة من سيرة الإمام عز الدين القسّام**، م. س.، ص 128.

[56] سميح حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 65.

[57] حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. ن.، ص 65 – 66.

[58] عجاج نويهض: **رجال من فلسطين من بداية القرن حتى عام 1948**، م. س.، ص 112.

[59] **حاييم وايزمان:** (1874– 1952): يعدّ أشهر شخصية يهودية بعد تيودور هرتزل، أدى دورًا مهمًا في استصدار وعد بلفور في 1917/11/2، كان رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية من العام 1920 وحتى 1946، ثم انتخب أول رئيس لما يُسمى "دولة إسرائيل" في 1949.

[60] شارك في عملية نهلال أفراد من الخلايا القسّامية العاملة في صفورية والتي ضمّت أحمد توبة، وخليل محمد عيسى الملقّب بأبي إبراهيم الكبير، وأحمد الغلاييني الذي صنع في معمله الصغير القنابل، ومصطفى علي الأحمد ملقي القنابل على المستوطنة اليهودية.

[61] حُكم بالإعدام على مصطفى علي الأحمد، وبالسجن 15 عامًا على أحمد الغلاييني صانع القنبلة، وبراءة المتهمين الباقين لعدم ثبوت الأدلّة. لمزيد من التفاصيل حول عملية نهلال، راجع: شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، م. س.، ص 270.

[62] بيان نويهض الحوت: **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917– 1948**، ط.1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1981، ص324– 325

[63] **راغب النشاشيبي:** (1880 – 1951) نائب في مجلس المبعوثين العثماني إثر إعلان الدستور العام 1908. ضابط في الجيش العثماني. عيّنته السلطات البريطانية العام 1920 رئيسًا لبلدية القدس. أسّس حزب الدفاع الوطني العام 1934، لمواجهة الحزب العربي الفلسطيني والمجلس الأعلى برئاسة أمين الحسيني، وجرى اختياره عضوًا في اللجنة العربية العليا العام 1945. بعد نكبة العام 1948، عُيّن راغب النشاشيبي وزيرًا للزراعة، ثم وزيرًا للنقل والمواصلات في الحكومة الأردنية، كما تمّ تعيينه حاكمًا عامًا للضفة الغربية في مجلس الأعيان، والحارس العام للحرم الشريف والأماكن المقدّسة، وعضوًا في مجلس الأعيان الأردني حتى وفاته العام 1951.

[64] محمد محمد حسن شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، م. س.، ص 272.

[65] رست سفينة "لوبولد الثاني" في ميناء يافا بتاريخ 16 تشرين الأول العام 1935، محمّلة بالبضائع الإسمنتية، المقدّرة بـ537 برميلا من الإسمنت، استعمل للتمويه، بهدف تهريب السلاح المرسل من بلجيكا إلى المدعو أ. كاتان في تل أبيب.

[66] لم يكن ردّ فعل الحاج أمين الحسيني ولا بقية الأحزاب لحادث تهريب الأسلحة مشابهة لردّ فعل القسّام، فبينما قرّر القسّام تفجير الثورة، اكتفت الأحزاب بالاجتماع مع المندوب السامي وطلب الإضراب. وعندما لم توافق سلطات الاحتلال قرّر حزب الاستقلال القيام بالإضراب لوحده، مع العلم أنه كان خارج الإئتلاف الذي التقى بالمندوب السامي. وما كان من بقية الأحزاب إلا معارضة الخطوة التي قام بها حزب الاستقلال.

[67] عبد الله الطنطاوي: **الوادي الأحمر– صفحات خالدة من سيرة الإمام عز الدين القسّام**، م. س.، ص 165 – 166.

[68] **خربة الشيخ زيد:** قرية تقع في الجهة الشمالية لمنطقة يَعبَد وهي قرية من أعمال نابلس، ويقال عن يَعبَد أيضًا "معبد"، لأنها كانت معبدًا لإبراهيم الخليل. لمزيد من التفاصيل، راجع: مصطفى مراد الدباغ: **بلادنا فلسطين: في الديار النابلسية**، ج. 2، القسم الثاني، دار الطليعة، بيروت 1971، ص 96 – 97.

[69] حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 75 – 80.

[70] شراب: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، م. س.، ص 259.

[71] خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 61.

[72] **الحزب العربى:** حزب سياسى فلسطينى سابق ذو توجه وطنى، تأسس فى نيسان العام 1934. كان من أشهر قادته فهمي الحسيني.

[73] خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 47. راجع أيضًا: حموده: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، م. س.، ص 90

[74] **حزب الاستقلال:** حزب قومي عربي تأسس في القدس العام 1932.

[75] خلف: **تجربة الشيخ عز الدين القسّام**، م. س.، ص 44

[76] إن المهاجمين العرب الذين قتلوا اليهود في حادثة عنبتا ينتمون إلى عصبة القسّام السريّة بقيادة فرحان السعي الذي انتقمت منه السلطات البريطانية بإعدامه صائمًا وهو في الثمانين من العمر.

[77] الحوت: **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 – 1948**، م. س.، ص 332

[78] علي حسين خلف: **"تجربة عز الدين القسّام – مدرسة جامع الاستقلال (1922 – 1935)"، شؤون فلسطينية**، ع. 126، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، أيار 1982، ص 89.

[79] عادل حسن غنيم: **"ثورة الشيخ عز الدين القسّام"، شؤون فلسطينية**، ع.3، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، تموز 1971، ص 189.

[80] حسين حجازي: **"الحركة القسّامية ودلالاتها التاريخية والعقائدية"**، شؤون فلسطينية، ع. 154– 155، م. س.، ص 47.

***

مكتبة البحث

أولًا: المصادر والمراجع المنشورة باللغة العربية:

- حجازي، حسين: "الحركة القسّامية ودلالاتها التاريخية والعقائدية"، **شؤون فلسطينية**، ع. 154 – 155، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، كانون الثاني / شباط 1986.
- حموده، سميح: **الوعي والثورة – دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسّام–**، الطبعة الثانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، 1986.
- الحوت، بيان نويهض:
  - **الشيخ المجاهد عز الدين القسّام في تاريخ فلسطين**، دار الاستقلال للدراسات والنشر، بيروت، 1987.
  - **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917 – 1948**، ط.1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1981.
- الخفش، حسني صالح: **مذكرات حول تاريخ الحركة العمّالية العربية الفلسطينية**، منظّمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، بيروت، 1973.
- خلف، علي حسين:
  - "تجربة عز الدين القسّام – مدرسة جامع الاستقلال (1922 – 1935)"، **شؤون فلسطينية**، ع. 126، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، أيار 1982.
  - تجربة الشيخ عز الدين القسّام، ط.1، دار ابن رشد للنشر والتوزيع،، عمان – الأردن، 1984.
- خوري، فيليب: **سوريا والانتداب الفرنسي – سياسة القومية العربية 1920 – 1945–**، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.1، بيروت، 1997.
- الدباغ، مصطفى مراد: **بلادنا فلسطين: في الديار النابلسية**، ج.2، القسم الثاني، دار الطليعة، بيروت، 1971.
- دروزة، عزة: **حول الحركة العربية الحديثة**، الجزء الثالث، المكتبة العصرية، صيدا، 1950.
- الزركلي، خير الدين:
  - **الأعلام**، ط.3، ج.1، دون ناشر، بيروت، 1969.
  - **الأعلام**، ط.3،ج. 7، دون ناشر، بيروت، 1969.
- شراب، محمد محمد حسن: **عز الدين القسّام شيخ المجاهدين في فلسطين**، ط.1، دار القلم، دمشق 2000
- الطنطاوي، عبد الله: **الوادي الأحمر– صفحات خالدة من سيرة الإمام عز الدين القسّام**، دار القلم، ط.1، دمشق 2004.
- غنيم، عادل حسن:
  - "ثورة الشيخ عز الدين القسّام"، **شؤون فلسطينية**، ع. 3، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، تموز 1971.
  - **الحركة الوطنية الفلسطينية من 1917 إلى 1936**، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974.
- الكيالي، عبد الوهاب: **تاريخ فلسطين الحديث**، ط.1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1970.
- مارديني، زهير: **ألف يوم مع الحاج أمين**، دار العرفان، بيروت، 1977.
- نويهض، عجاج: رجال من فلسطين من بداية القرن حتى عام 1948، ط.1، منشورات فلسطين المحتلة، بيروت، 1981.
- ياسين، صبحي: **الثورة العربية الكبرى في فلسطين**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.

ثانيًا: الدوريات

شؤون فلسطينية: ع. 3 – تموز 1971. ع. 126 – أيار 1982. ع. 154/ 155 – كانون الثاني/ شباط 1986.